٢ ـ حجة تأريخيـــة

للدكتـــور جواد علي

لم يتمكن الغزاة أو المهاجرون الجدد من احتلال كل فلسطين فظل ساحل « فلسطية » بأيدي الفلسطينيين الذين جاءوا إلى هذا المكان من الخارج . ويقال أن أصل هؤلاء من « جزيرة كريت » وقد نزلوا في أيام الكنعانيين . وظلت أماكن أخرى بأيدي أصحابها القدماء ، وقد كان الكنعانيون على ما جاء في التوراة منقسمين إلى أحد عشر سبطاً أو أكثر وكان من أشهرهم « اليبوسيون ، والعموريون ، والجرجاشيون والحويون والفرزيون والمرقيون والسينيون والإروادیون والصماريون والحاثيون[1] . وقد اشتركت كل هذه الأسباط في مقاومة العبرانيين واتحدت مع الأمارات الأخرى في طرد العبرانيين وفي الدفاع عن أرض فلسطين من هجمات الأمم القوية كالأشوريين والبابليين . وقد عثر في هيكل الكرنك في أرض الصعيد على جدول مثلث لمدن كنعان يتضمن ذكر ١١١٨ و ١١٩ مدينة يظن أنها المدن التي افتتحها « تحتمس الثالث » قبل أيام يشوع أي قبل مجيء الإسرائيليين[1]

كان الإسرائيليون على جانب عظيم من البداوة عند دخولهم « أرض كنعان » وكانوا في درجة واطئة من الحضارة والثقافة بالنسبة إلى الكنعانيين ولذلك تأثروا عند مجيئهم إلى هذه الأرض بالثقافة الكنعانية ولاسيما أولئك الذين قيل لهم « الإسرائيليون » وهم الذين سكنوا في الشمال واتصلوا بالفينيقيين وتأثروا بهم وعبدوا الإله « بعل » بدلا من إلههم « يهوه » إله التوحيد . أما أولئك الذي سكنوا المنطقة التي عرفت فيما بعد باسم « مملكة يهوذا » فانهم ظلوا على فطرتهم الأولى وعلى جانب من البداوة وقد كان هذا الاختلاف الثقافي من عوامل الإنقسام الذي حدث في أيام الملك « رحبعام » .

قيل لليهود « العبرانيون » « hebrew » وفي اللاتينية

(١) الاصحاح العاشر آية ١٥ — ١٩

Ency. Bibl, P, 640 ff - müller, asien and Europa, S 206 —

(١) قاموس الكتاب المقدس مـ ٢ ص ٢٧٠ .

ضيقة مقفرة ، وأحست بأن قلبها قد بقي في تلك الدار ، فتمسكت بأسعد (ابن فارس أفندي) الشاب المهذب الأنيق الذي رافقها إلى منزلها ، تتذكر به الشهر الذي مضى كأنه رؤيا منام .

وإنها لفي هذا الشعور ، وإذا بهاني قد وقف أمامها بثيابه الوسخة ثياب الأصطبل ، فابتعدت عنه ، وضمت إليها ذيل ثوبها الأبيض ، ولم تكن تعرفه من قبل إلا في هذه الثياب ، ولكن الحب كان (صابوناً) يزيل أوضارها ، وطيباً يذهب ريحها ، وصيغة زاهية تفيض عليها ، فأين الحب الآن ؟ إنه نائم لم يفق بعد في قلبها ، لذلك أنكرت هذه الثياب ، ونفرت منها ، وأبدت الترفع والاستعلاء ، ولم تذكر إلا أنها ابنة صاحب القصر ، وأنه صبيٌّ لقيط سائس خيول يقابل أدبارها ، ويرفع أقذارها ، وتألمت لدخوله عليها أمام أسعد ، ورأت في ذلك صغاراً لها في عينه وخافت أن يظن أنها ليست من طبقة الأكابر المتمدنين ...

غضبت لعدوان هاني على كرامتها ، وتخطيه قدره إلى محاذاتها ، ولم ير هو فيها إلا الحبيبة قد لبست هذه الثياب التي تكشف بقاتها التي يعبدها ، وأبدت أعضاؤها التي يقدسها ، لغريب فيها ، فغضب للحشمة الجبلية أن يذهب بها هذا التكشف ، وللحب أن يهينه هذا العبث ، وقال لها :

— ما هذا ؟

— قالت : وأنت من أذن لك أن تدخل عليَّ ؟

— قال : أنا ... من أذن لي ... يا ليلى ؟

— قالت : لا أسمح لك أن تناديني باسمي لقد عدوت حدَّك .

ودخلت الخادم فقالت لهاني :

— امسك عربة أسعد أفندي .

— فصاح بها : ليمسكها هو .

وخرج مغضباً .

وقال أسعد : أنا لا أفهم ما صبرك على هذا الخادم القذر .

الخادم القذر ؟ لقد كانت هذه الكلمة صرخة عالية أيقظت الحب النائم ، فقالت له :

— أنا لا أسمح لك ، إنه صديقي ، لا أسمح لك ، أخرج من داري ، أخرج .

وتركته حيران مشدوهاً ، وانطلقت إلى (صخرة الملتقى) .

(البقية في العدد القادم)

علي الطنطاوي

« hebraeus » وقد أخذت هذه الكلمة من « عبراية » « ebráyà » الآرامية . وهذه من « عبرى » . « ibri » أو « عبريم » « ibrim. » الواردة في التوراة(١) والتى كانت تطلق بصورة عامة على « بنى إسرائيل » « B'nê israel » أى « أبناء إسرائيل »(٢) .

وقد أطلق الكنعانيون كلمة « العبرانيين » على المهاجرين الذين كانوا يدعون أنهم من صلب « إبراهيم » « إبرام » لتكون لهم علامة فارقة ولتدل على أنهم من الشعوب الغريبة الطارئة على الكنعانيين(٣) .

أما النظرية اليهودية فتقول أنهم إنما سموا « عبرانيين » لعبورهم نهراً أو قطع حد « أى عبورهم من جهة إلى جهة أخرى ... عبرها — ناهار « nàhàr — êber han » أى « عبور النهر إلى الجهة الثانية منه » ويظن أن المقصود من « النهر » نهر الفرات الذى عبره عند « حاران » « haran »(٤) .

ويقال للأرض التى خرج منها إبراهيم وناحور « nahor » « آرام النهرين » « Aram - Naharain »(٥) . ويرى العالم « سايس » « Sayce » أن معنى الكلمة « تجار » لأنهم كانوا يعبرون نهر الفرات لأغراض تجارية »(٦) .

ويرى بعض العلماء أن كلمة « عبرانيين » من « عابر » « Eber » وهو حفيد « سام بن نوح »(٧) . ولعابر على ما جاء فى جدول أنساب التوراة أولاد ولهؤلاء أولاد أيضاً وقد تكونت من ذريتهم قبائل وعشائر . ويرى بعض علماء التوراة أن هذه الأسماء هى أسماء مواضع جغرافية تقع فيما بين النهرين وأن الموطن الأصلى التى انحدرت منه الشعوب السامية هو منطقة « أرآرات » « Ararat » انحدرت منه إلى شمال العراق ثم إلى الجنوب فسائر الأنحاء(٨) .

(١) Ency Bibl P 1984

(٢) المصدر نفسه .

(٣) Ges — Gesch der hebr Sprache und Schrift S' qf Kautvgch in Riehms HWB.

(٤) التكوين سفر ١١ آية ٣١

(٥) التكوين سفر ٢٤ آية ٤ ، ٧ ، ١٠ .

(٦) Hastings P 201 Sayce Exp T Xv III 1907 P 233

(٧) Hastings P 201 Ency Bibl P 1984

(٨) ency Bibl P 1984

على كل فقد رأيت أن موطن العبرانيين على ما جاء فى التوراة وهو كتاب اليهود المقدس كان خارج فلسطين وأن « إبراهيم » الخليل وهو الجد الأعلى للعبرانيين لم يكن من أهل فلسطين بل كان من العراق على ما جاء فى التوراة(١) ثم انتقل إلى أرض كنعان فسكن بين الكنعانيين حيث تكونت له ذرية . ثم استرق المصريون الإسرائيليين إلى أن تمكنوا من الخروج من مصر بزعامة « موسى » حيث اتجهوا نحو الشرق إلى أراضى كنعان

وتفند أسفار التوراة دعوى اليهود فى أرض كنعان أو « أرض فلسطين » كما دعيت فيما بعد . فسكانها القدماء على ماجاء فى التوراة هم الكنعانيون وذلك قبل مجىء العبرانيين بآلاف السنين . واليهود حسب رواية اليهود هم مهاجرون جاءوا إلى أرض فلسطين وعاشوا مدة عيشة « عشائرية » إذ كان يحكم كل عشيرة منهم « قاض » هو شيخ العشيرة وحاكمها ؛ ولذلك عرف الدور الأول من أدوار اليهود فى فلسطين باسم « دور القضاة »

وأما الذين جاءوا من مصر وهم من نسل « يعقوب » فإنهم كانوا قد استعبدوا فى أيام الفراعنة بعد أن غادر « يعقوب » أرض فلسطين ونزح إلى مصر حيث تكاثرت ذريته هناك وتولوا مراكز سامية ولم يفكروا فى العودة إلا بعد أن ساءت حالتهم هناك وبعد أن استرقهم الفراعنة ؛ عندئذ فكروا فى الهجرة إلى مكان جديد فلم يجدوا محلا آمناً غير فلسطين(٢) وقد جاءوا بعدد قليل وعلى دفعات فلم يتمكنوا من الدخول إليها عنوة ولم يتمكنوا من قهر أهل أرض كنعان والتغلب على الكنعانيين ويظهر ذلك بكل وضوح من أقوال التوراة .

ووردت فى التوراة بعض الشهادات التى تفند مزاعم الصهيونية تماماً فما ورد فيه أن الشعب الذى يسكن فى هذه الأرض كان على جانب عظيم من الحضارة وأن العبرانيين كانوا على العكس على جانب كبير من البداوة . « ومتى أتى بك الرب إلهك إلى الأرض التى خلف لآبائك إبراهيم وإسحق ويعقوب أن

(١) التكوين إصحاح ١١ آية ٢٧ وما بعد Ency Bibl P' 24 التكوين إصحاح ٢٥ آية ١٨ وما بعد ، التكوين إصحاح الثانى عشر آية أو ما بعد . التكوين الإصحاح السابع عشر آية ٨ وما بعد .

(٢) Nevill Barbour, Nisi Domini p, 14

يعطيك إلى مدن عظيمة جيدة لم تبنها وبيوت مملوءة كل خير لم تملأها ، وآبار محفورة لم تحفرها ، وكروم وزيتون لم تغرسها ؛ وأكلت وشبعت ، فاحترس لئلا تنسى الرب الذى أخرجك من أرض مصر من بيت العبودية »(١) .

فهذه شهادة عبرانية واردة فى أقدس وأقدم كتاب عند العبرانيين وهو الكتاب الذى استشهد به اليهود فى إثبات حقهم فى فلسطين ؛ هى شهادة تتكلم بكل وضوح عن بداوة العبرانيين وانحطاطهم بالنسبة إلى « الكنعانيين » سكان فلسطين القدامى ..

وهناك شهادة أخرى تلفت الأنظار حقاً وهى تشرح لنا حالة اليهود عند محاولتهم الدخول إلى فلسطين ودرجة انحطاطهم وحالتهم البدائية وقلة عددهم كذلك ومقدار تفوق الشعوب الأصلية على اليهود . فها هو إله إسرائيل يخاطب « موسى » فيقول « ارسل هيبتى أمامك وازعج جميع الشعوب الذين تأتى عليهم وأعطيك جميع أعدائك مدبرين ، وارسل أمامك الزنابير فتطرد الحويين والكنعانيين والحثيين من أمامك ، لا أطردهم فى سنة واحدة لئلا تصير الأرض خربة فتكثر عليك وحوش البرية ، قليلا قليلا أطردهم من أمامك إلى أن تثمر وتملك الأرض(٢) .

فهذه شهادة تشرح حالة اليهود عند مجيئهم إلى فلسطين وقلة عددهم وانحطاط مستواهم الثقافى والمدنى بالنسبة إلى شعوب فلسطين وهى شهادة لا تصلح أن تكون حجة فى صالح اليهود .

لم يتمكن اليهود من تثبيت أقدامهم فى المناطق التى استولوا عليها من فلسطين إلا بعد مدة طويلة ولم يكن ذلك إلا بعد اتخاذ طرق مختلفة منها التزاوج ومنها التبشير بالديانة اليهودية ولم يتمكنوا من تشكيل حكومة بالمعنى الحديث المفهوم من كلمة « دولة » إلا لمدة قصيرة جداً وتحت عوامل ضغط شديدة ؛ ولم تعمر هذه الدولة طويلا بل عاشت منذ عهد « شاوؤل » فى سنة ١٠٢٠ قبل المسيح وهو أول ملك تولى الملك عند العبرانيين وانتهت مع حكم سليمان حوالى سنة ٩٣٠ قبل المسيح أى أنها عاشت فقط بجهود شاوؤل وداود وسليمان . فلما مات سليمان وانتقل الملك إلى ابنه « رحبعام » وكان ضعيفاً انقسمت المملكة إلى قسمين مملكة يهوذا ومملكة إسرائيل(١) .

هذا هو عمر الدولة العبرانية الموحدة التى يتغنى بها الصهيونيون . ومما يستحق الالتفات كذلك أن ملوك هذه الدولة لم يكونوا ليتمكنوا من تكوين دولتهم هذه لولا المساعدات الخارجية التى كانت تصل إليهم من الأمراء الفلسطينيين عن طريق التقرب والصداقة . فهذا « داود » وكان من قواد الملك شاوؤل ينتهز الفرصة فيتحالف مع ملوك الفلسطينيين للايقاع بالملك شاوؤل ليتولى بنفسه الحكم ، فلما تولى الحكم لاقى مصاعب كبيرة فى سبيل التوفيق بين « إسرائيل » ويهوذا ، لما كان بين الطرفين من تباعد بسبب الاختلاف فى درجة الثقافة والحالة الاجتماعية ؛ ولم يتمكن داود من تعمير قصره فى القدس إلا بمساعدة الفينيقيين والفلسطينيين بل حتى والعرب الذين كانوا على اتصال باليهود كما يفهم ذلك من التوراة وكذلك فى أيام سليمان .

وإذا استعرضنا تاريخ المملكتين الصغيرتين اللتين تكونتا فيما بعد نجد أن العبرانيين لم تكن لديهم فكرة « حكومية » بل كانت عندهما فكرة « دينية » هى الغالبة على كل شىء وكانت هى من عوامل انقسام العبرانيين كذلك . ولذلك نجد قتلا واغتيالا وثورات على الملوك وطلب نجدات من الأمراء الوطنيين ومن الحكومات التى كانت فى العراق أو فى سوريا أو فى مصر للاستعانة بها على محاربة ملوكهم . وكان رجال الدين فى طليعة الثائرين على الحكام عند ظهور أقل شىء منهم يدل على أنهم يريدون الانتقاص من نفوذهم أو ميلا إلى التجدد أو الأخذ بأساليب الثقافة التى كانت عند الكنعانيين أو الفينيقيين ، حتى آل ذلك إلى سقوط مملكة إسرائيل وعاصمتها « السامرة » « Samaria » سنة ٧٢٢ ثم سقوط القدس على أيدى البابليين سنة ٥٨٦ قبل الميلاد .

جواد على

(١) التوراة سفر التثنية إصحاح ٦ آية ١٠ فما بعد

Nisi Dominus p, 12

(٢) التوراة سفر الخروج إصحاح ٢٣ آية ٢٧ وما بعد .

(١) راجع شهادة الدكتور حتى أمام لجنة التحقيق الأمريكية الأنكليزية بتاريخ ١١ كانون الثانى سنة ١٩٤٦ بواشنطن .